١ – فلسطين في فكر وأدب السيِّد محمد حسين فضل الله:

بين الشعر والنقد

بقلم الدكتور علي رفعت مهدي
استاذ الأدب في الجامعة اللبنانية
متخصص في شعر السيد محمد حسين فضل الله
وحائز على ثقته واطلق عليه لقب الولي الفقيه الأدبي
Aliraf3atmahdi@gmail.com

تظهر القراءة المتأنية لكتابات السيّد فضل الله وخطاباته، سعة اطلاعه وعمق رؤيته؛ وتجاوزه للقيود المذهبية والطائفية، وطرح أفكاره في الإطار الإسلامي الرحب، بل وفي الإطار الإنساني الواسع. وينطلق فضل الله في موقفه وتحليله للأمور من رؤية إسلامية رسالية ملتزمة، وهي رؤية تدعو لتبني الإسلام فكراً وسلوكاً ومنهج حياة. ورؤيته في الوقت نفسه رؤية حضارية منفتحة، تستوعب الآخر وتلتقي على القواسم المشتركة لخدمة الأمة ولمواجهة الأعداء. ولهذا ربطَ السيّد واقع المسلمين بتاريخهم الماضي حين وقفت اليهوديَّة في مواجهة دعوة النبي الكريم لتبغي عليها وتحاربها كما أشار في قصيدته " واقعة خيبر" :

ها هُنا.. كَانَتِ اليَهُودِيَّةُ الرَّعْناءُ تَلْهُو في كبْرياءِ العِنادِ
تَتَحدَّى وَحْيَ النُبُوَّةِ بالباطِلِ، بالبَغْي في جُنُونِ الفَسادِ
حَسَدٌ يَأكُلُ الحيَاةَ ، وحِقْدٌ يتَغَذَّى بالشرّ بَيْنَ العِبادِ
وَضَلالٌ مُلَوَّنٌ بالشِّعاراتِ، كجَمْرٍ يَعيشُ بَيْنَ الرَّمّادِ

لقد منح السيد لليهوديَّة هويَّات الحاكم المستبد والطاغي الناقم على نور الهدى الحسود الباغي من خلال الأفعال التي ألصقها بها :" (تلهو – تتحدَّى – حسدٌ يأكل_ حقدُ يتغذَّى_) ممَّا يوحي بعظيم خطر هذه اليهودية الحاقدة العمياء التي لا تعرف غير الحروب والنفاق ، وبيع كتاب الله بالثمنِ البخسِ وعيش الضلال والفتن :

ها هُنا كانَتِ اليَهودِيّةُ العَمْياءُ حرْباً على هُدى المُسْلِمينا
تَتَهادى باللَّفِّ واللَّعْبِ في كلِّ طَريقٍ يَمُرُّ بالمرْجِفِينا
حَسْبُها مِنْ ضَلالةِ الرّوحِ أنْ تُرْهِقَ بِالغَيِّ مُلتَقى المؤمِنينا
وتَبيعَ الكِتاب بالثَّمَنِ البَخْسِ وتَحْيَا الهُدى ضَلالاً مُبينا

هذه اليهودية التي وعى السيد خطرها وقرأ سيرتها في القرآن الكريم هي التي قتلت الأنبياء ، وحطَّمت أسوار الرسالات، وأرهق تاريخُها الحقَّ بكلِّ الأضاليل والأكاذيب :

ها هُنا كانَ لليَهُوديّةِ السَّوداءِ ثِقْلُ المواقِفِ السَّوْداءِ
جُنَّ تاريخُها المُخَضَّبُ، في هَولِ الخَطايا، بِقانِياتِ الدِّماءِ

يَقْتُلُ الأنْبياءَ، يَحْطِمُ أسْوارَ الرّسالاتِ بِاليدِ الشَلاّءِ
يَرْهِقُ الحَقَّ بِالأضاليلِ إمّا أطْلَقَ الحَقُّ دَعْوَةَ الأنْبِيَاءِ

لقد شكَّلت القضية الفلسطينية بالنسبة للسيّد فضل الله قضية إسلامية وقضية مبدئية ومركزية ؛ وهو ما يعطيها أهمية وأولوية تتجاوز أي قضية أخرى في عالمنا المعاصر. فقد رأى السيد فضل الله أن قضية فلسطين هي القضية الأساس، وأن كل القضايا المتصلة بهذا البلد العربي أو المسلم أو ذاك، هي فرع عن القضية الفلسطينية.

ولذلك يقول إن "موقفنا من القضية الفلسطينية دين ندين به، وليس مجرد شعار سياسي نستهلكه اليوم لنتركه غداً". ويؤكد أن فلسطين تختصر كل القرن الذي مضى، وتختصر كل آلام الأمة، وكل أحلام الأمة " لا أحلام بدون فلسطين، وتسقط كل الأحلام عندما تسقط فلسطين... ليست معركة وليست مفاوضات، وليست تفاصيل، ففلسطين قصة أن تكون الأمة أو لا تكون ".

وقد دعا فضل الله الداعية المسلم الحركي ، والفقيه الديني إلى تبني الإسلام باعتباره المنهج الأصح والأسلم لتحقيق النصر على الصهاينة ؛ وعدَّ الإسلام هو المحور والسبيل الأوحد في قضية الصراع الوجودي مع الصهيونيَّة "يوجد محور هو الإسلام في مواجهة "إسرائيل"... نحن أقوى من أي يوم لأننا مع الإسلام. معركة الإسلام السياسية هي الصراع مع "إسرائيل"، وليس هناك إسلام وحركة إسلامية سياسية خارج الصراع مع "إسرائيل....." لهذا تراه في شعره يستوحي رموز الإسلام في حركة الصراع مع إسرائيل ومنهم الإمام عليّ بن أبي طالب حين واجه عمراً بن عبد ودّ في واقعة الأحزاب حيثُ ضربهُ عليٌّ بسيفهِ ضربةً حطَّمت أصنام الكفر والتحدّي لدعوة النبي محمَّد (ص) :

مَنْ لعَمْرٍ.. وجَلْجَلَ الصّوْتُ هدّاراً.. أنا ها هنا.. أسيرٌ لِعَمْرِ
هيَ رُوحُ الإسلامِ عاشَتْ على دربِ عليٍّ.. في خيرِ وعيٍ وصبرِ
قادَ فيها الحرْبَ الضّروسَ ليهوي الكفرُ.. في خزيِهِ.. بأعمقِ بئْرِ
وجَرى كلُّ همّهِ الله.. يقْتادُ سرايا الهُدى لأفْضَلِ نصْرِ

بناء على ما تقدَّم ، كان للسيّد فضل الله المسلم العروبي ، والفقيه الداعية الرسالي موقفه الواضح الذي لا لبس فيه من قضية فلسطين ، شأنه شأن شعراء الإتجاه العربي / الإسلامي ، حيثُ خصَّ فلسطين القضية / والقدس الرمز / في نتاجيه السياسي والأدبي.

فلسطين في قصائد السيّد:

كانت قضية فلسطين خير دليل على العدوان، وصورة حية لاستبداد القوي بالضعيف، واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، وهو ما يقف السيّد على طرف نقيض منه. حيث عدَّ المسألة الفلسطينية محكاً حقيقياً له، وامتحاناً صعباً لابد من النجاح فيه ، إن أراد لدعوته أن تشيع ، ولفنه أن يتجسد بحيث يكون مثلاً يحتذى، ورسالة خالدة تقتدى . وقد فعل ، فخصَّ فلسطين – في الفترة التي أشرت إليها– بقصائد مستقلة، وأردفها بحضورٍ لقضيَّتها في قصائد أخرى كـ (لعبة الأمم) و(واقعة خيبر) و(يا آمتداد الصَّحراء) (واقعة الأحزاب) و(أسطورة فلسطين) . وهي قصائد غنية بكمّها وكيفها، عكست تصور السيّد / المسلم والداعية/ الرسالي والفقيه/ المتصدّي لشؤون الأمَّة ، لهذه القضية، وموقفه منها، وهي ، وإن كانت قد ألقيت في مناسبات بعينها، فإنها تتصل بأحداث حادة في فلسطين، وقد نمت نمواً طبيعياً، وتطورت تطوراً تاريخياً ظاهراً، إذ بدأت بالتنبيه على الخطر المحدق، ودعت لمواجهته قبل أن يستفحل ويصعب القضاء عليه كما لفتت قصائده الأنظار إلى مصادر القوة والضعف في الأمتين العربية والإسلامية.

خلَّف السيِّد فضل الله ديواناً ضخماً، وسمه بعنوان :" قصائد للإسلام والحياة " كان فيه شاهداً على القرن، وما تم فيه من أحداث سياسية واجتماعية وثقافية. ناهيك عما مر به من مواقف وظروف جعلته لا يستقر على حال، ولا يكاد يقيم في مكان حتى يشد عصا الترحال_ من خلال شعره _ إلى مكان آخر. وكانت له محطات شعرية في الأحداث التي عصفت ببلاده في فلسطين ومصر، وسورية ، والعراق ، والبحرين ، بالإضافة إلى الوطن الأم لبنان ، فمن وحي مؤتمر(جمعية التوعية الاسلامية) في البحرين نسمع شاعرنا السيد فضل الله يقول :

ورجعنا..وكان للدين في البحرين عبر الشباب موسم فكر
تومض اللهفة الحبيسة في الاعماق في وحيه بأعذب شعر
ورجعنا اليك ، لبنان ، حدثنا طويلا في الليل عن كل سر
كيف حال الاسلام ،كيف الشباب الحر فيما يدري وما ليس يدري
انّهم قوّةُ الطّليعةِ ، فلتسرعْ خطاهم للفجر في كل أمرِ

إن تراثه الشعري جاء غنياً بالحديث عن العام لا الخاص. وعما يخص الجماعة لا الفرد ، لهذا نجد حضور(نا) المتكلِّمين في كلِّ منظومتِه الشعريَّة بآستثناء لحظات الدعاء والوجدان الذي برز فيه ضمير المتكلِّم الخاص بالشاعر. ومثال تبنّيه لضمير (نا) المتكلِّمين الخاص بالجماعه :

ابدا ، نحن جند دينك ، في الساحة نحيا لموعد الايمانِ
انها قصة الجهاد اذا اشتدت على الدرب هجمة الطغيانِ
سوف تبقى في جيلنا ، في عيون النشء حلما منوع الالوانِ
وستنمو البذور في الحقل أغراس حياة لخدمة الانسانِ
ابدا..سوف يشهد الكون،في تاريخنا الطهر ،مصرعَ الشيطانِ
وسنبقى في روعة القدس ، من وحيك،نحيا انطلاقة الوجدانِ

لقد رسم السيد من خلال ضمير (نا) المتكلمين (نحن ، جيلنا ، تاريخنا) والأفعال الدَّالة على الجمع (نحيا ، وسنبقى ، نحيا) لوحةَ الإعتصام بحبل الله ، والإلتزام بالجماعه الذين هم جند الله الغالبون، المجاهدون في سبيل الله دفعاً للظلمِ وهجمات الطغيان ، وسعياً لمصرع الشيطان القادم من أجل تدمير فلسطين ، وحرصاً على القدس التي هي قِبلةُ وجدانِ المسلمين وضميرهم الحيّ .

ومن جميل تراكيب فضل الله البلاغية ما ساقه في النَّص من صورةِ الأملِ الذي يراه في الجيل الجديد المجاهد المقاوم ،الساعي إلى إسترجاع الحقّ/ المقدَّس (حقنا) ، الغارس لبذار المقاومة والجهاد في أرض فلسطين السليبة هذا الأمل يستشرفه فضل الله في الفعل (تنمو) المسبوق بسين الإستقبال :

وستنمو البذور في الحقل أغراس حياة لخدمة الانسانِ

وامَّا اللام الجارة للإسم (خدمة) فإنها تبيّن الغاية التي ستنمو في سبيلها البذور أغراس حياة ووعي، وهي خدمة الإنسان ، كل الإنسان .....

وأمَّا الإيقاع الموسيقي في هذا النَّص فإنَّه يتأتَّى من خلال الحروف التي ساقها السيِّد في الأبيات ومنها: (س) في الفاظه :(الساحة،سوف، ستنمو، أغراس، الانسانِ، سنبقى ،القدس) و(ش) في الفاظه : (آشتدت ، النشء ، يشهد) وتكرار حرف الدال (د) بما فيه من قوَّة تعبيريةِ وإيقاع موسيقي:(ابدا ، جند ، دينك، لموعد، الجهاد، اشتدت، الدرب، لخدمة، ابدا،يشهد القدس ،

الوجدان) ورويّ النون المكسورة (نِ) والتي أتت حركتها أنينًا وحنينًا وبكاءً ووجداً إنسانياً (الإيمان، الطغيان، الألوان، الإنسان، الشيطان، الوجدان).

النَّصر الموعود لفلسطين:

آمن السيّد أنَّ النَّصر من الله آتٍ لا محالة ، وهو حقيقة حتميَّة في القرآن الكريم :" ولينصرنَّ الله من ينصره ، إن الله لقويٌّ عزيز " لهذا غرَّد في سرب معظم الشعراء الَّذين آمنوا بحتميَّة النصر في فلسطين وتحقيق الوعد الإلهي في ذلك ، حين يخاطب الله تعالى بني إسرائيل في القرآن الكريم : " وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا.

فلسطين قبلةُ الأحرار والثوَّار ، ووِجهة الصِّراع والمقاومة والإباء ، هي قدسُ السيّد فضل الله ، ومعراج روحه، إليها وجَّه الأبصار ، وعليها دلَّ وأشار ، فاليهود يقتفون خطوات الشيطان ، ويتحالفون مع كل القوى الهمجية السوداء التي تشنُّ حروبها على العالم ، وتثير الفتن والصِّراعات وهذا ما أشار اليه فضل الله في إحدى رباعياته في مطوَّلتِهِ الشعرية (من وحي النَّكبة) في ديوانهِ يا ظلال الإسلام :

ثم عاد اليهودُ في خطوةِ الشيطانِ في هجمةِ القوى السوداءِ
يحمِلون الحقد الدفينَ على العالم في كل لعبةٍ للفناءِ
ومضت خيبرُ وعاشت فلسطينُ بحوراً من ظلمةٍ ودماءِ
ترهق العمرَ أريحيَّاً ليطغَى في ظلامِ التَّاريخِ"شعبُ السماءِ

لقد أوحت الأفعال الماضية (عاد ، مضت ، عاشت) التي تواترت في النَّص بمشهديَّة طغيان اليهود وظلمهم وآستبدادهم وقهرهم لفلسطين وشعبها وأرضها، وأما الفعل المضارع (يحملون)فقد منح اليهود العائدين الى فلسطين صفة حمَلَة الموت والدَّمار والحقد والحروب.وأما الفعل (يطغى) المسبوق ب لام التعليل فقد بيَّن فضل الله من خلاله غاية عودة اليهود (الطغيان) في ظلامِ التاريخ الدامي الذي قتلوا فيه الأنبياء والأولياء من أجل السيطرةِ على فلسطين تحت شعار أنهم شعبُ الله المختار .

إنَّ الفعل (مضت) وفاعله (خيبرُ)_ بما في هذا التركيب من إسنادٍ مجازيّ_ يلخِّص مأساة الشاعر وأمَّته ويوحي بتحسُّر فضل الله على ذلك التاريخ المجيد الذي هزم المسلمون فيه يهود شبه الجزيرة العربية في معركة خيبر زمنَ رسول الله (ص) حين قتلَ الإمام علي بن أبي طالب قائد اليهود "مرحب" وفتح باب حصنهم خيبر الذي فروا إليه ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء:

يا قالعَ البابِ التي عن فتحهِ عجزتْ أكفٌّ أربعونَ واربعُ

لقد كنَّى السيّد عن الواقع المرير لفلسطين بالمأساة ، حيث (عاشت فلسطين) ساحات الصراع والجهاد ، وغرقت في (بحور الدِّماء) التي سالت في سبيل تحريرها من نيرون الصهيونيَّة ، وحقد اليهود المقتفين أثر الشيطان ،وقد لجأ السيد إلى الكناية تعبيراً عن الواقع الداجي الذي وصلت إليه فلسطين،آملاً أن تصبَّ دماء المجاهدين في بحر الحريَّة الكبير.

لقد عاد اليهود ليحتلُّوا الأرض ، وينتهكواَ العرض ، ويستبيحوا الأنفس ويقتلوا أبناء فلسطين المجاهدين الأباة ، الذين رفضوا الهوان والإنصياع للظالم .

وطال وقوف الشاعر السيّد عن هذه الأمور، لأنه ما كان يرى تغيراً في الموقف أو الظرف عند العرب أو أبناء أمَّته ، بل إن الأمور تزداد سوءاً، وفلسطين تضيع أجزاء. حتى إذا ما حدث تلاؤم بين ما يدعو الشاعر إليه، وبين ما يطبق على الواقع، بعد

هزيمة حزيران سنة سبع وستين، حيث نما القتال، وانتقل المواطن العربي من حالة الهزيمة والهروب، إلى الصمود والهجوم، لحظنا السيّد ينطلق مغرداً بالفداء والدم، شادياً بالبطولة والشهادة،

من أجل فلسطين التي هي الوِجهةُ والهدف عند فضل الله ، وهي وجعُ الأمتين العربية والإسلامية ، الحاضرة في ذهنِه وعقله ، بكلِّ معاناتها ، لهذا دعا إلى المواجهة المسلَّحة ، والقتال سبيلاً وحيداً لاسترداد ما سلبه العدوّ وآغتصبه من مقدَّرات الأمة أرضاً وإنساناً ، يقول فضل الله :

وهناك اليد الخفية خلف الستر تلهو بوعينا وتشيرُ

تملأ الجو بالصراعات في كل طريق يسير فيه المصير

وتدور الطريق تبتعد الأهداف عنا ويستثارُ الشعورُ

ويظل الرواد في قمم الحكم وتُطوى على الجهاد الستورُ في حمأة الصِّراع الوجودي بين العرب والمسلمين وبين إسرائيل العدوّ التاريخي للعروبة والإسلام ، تطلُّ اليد الخفيَّة خلف السِّتر لتلهو بوعي السيِّد الداعية وبني قومه ، وتحرفهم عن الهدف الأساس ، وتملأ ساحاتهم بالصراعات التي لا تُسمِن ولا تغني من جوعٍ ، بل تعملُ على تمزيق أوصال الأمة وتشتِّت أهدافها، ليبقى حكَّام الجور وسلاطين الفساد متربِّعين على عروشِ حكمهم.

هل كان السيد يستشرف المستقبل القاتم الذي يراد فيه تصفية فلسطين والقدس من خلال " صفقة القرن " التي يسعى الطغاة لتمريرها ، وتهويد البلاد والعباد ؟ وهل لهذا كانت كلمته الأخيرة وهو ينازع _ للممرض المشرف على وضعه الصحي الذي سأله هل أنت مرتاحٌ يا سيدي ؟_ لن أرتاح حتى تزول إسرائيل ..

لإن يقين السيد أن زوال اسرائيل هو زوال كل الحقد والإجرام عن الإنسانية .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

دواوين السيد فضل الله (قصائد للإسلام والحياة – يا ظلال الإسلام – في دروب السبعين – على شاطىء الوجدان).

السيد فضل الله وفلسطين .

حوارات في الفكر والسياسة والإجتماع .